الجيش ودوره في مشروع محمد على

د. خالد فهمي

في أغسطس ١٩٤٩م وفي الذكرى المئوية لوفاة محمد على بعث أبوالـــهول برسالة لصديقته القاهرة يناجيها فيها ويسترجع معها قصتهما معًا. في هذه الرســـالة التي قام بترجمتها "من الهيروغليفية" إلى العربية محمود تيمـــور حكـــى أبوالـــهول للقاهرة تاريخًا ملخصًا لمصر بدءًا من العصر الفرعوني مرورًا بالعصر الإســـلامي وتأسيس عمرو بن العاص للفسطاط ثم تأسيس الفاطميين للقاهرة ومـــا أن وصـــل أبوالهول (أي تيمور نفسه) إلى فترة حكم المماليك حتى لخصها تلخيصًا شديدًا ثـــم أضاف :

ودالت دولة ذلك المملوك الجبار ... وخرجت مـــن بوتقـــه المحـــن والأرزاء صافية الجوهر فكنت الظافرة القاهرة. وكيف لا تكونين كذلك وقد قيّض الله لك ذلك الشهم الغيور. ذلك العبقري الفذ بن قوله ؟ لكأني به وهو في مسقط رأسه رانيا إليك يخترق بنظره الثاقب سجوف الزمن، ويغالب أمواج البحر، فيراك في محنتك تعانين الشقوة والبأساء ويستمع إلى ندائك اللاهف المستصرخ فلا يملك إلا أن يهب إليـــك واثبًا وثبته الكبرى، هاتفًا من أعماق قلبه : لبيك، لبيك أني لا متثله الســـاعة وفـــد هبط عليك باسطًا ذراعيه إليك فترامیت في أحضانه راجفة القلب، فياضة الحنين.

ثم يختم أبوالهول خطابه قائلاً " هل يذكر القاهرة ذاكر دون أن يســـرع إلـــى خاطره طيف محمد على ؟ أليس هو محلقًا بروحه العظيم حول قلعته يشرف عليـــك من عل يتعهدك ويرعاك؟ أو ليس هو اليوم متمثلاً الوثابة، وعظمته الخلاقة، في دم حفيده الفاروق الجالس على العرش يجدد نهضة الوطن ويبعث قواه إلى الأمام ؟".

هناك نقاط عدة في هذه المقالة، الرسالة البليغة التي يمكن التوقف عندها، منها مثلاً أن محمد على يبدو هنا أقرب إلى النبي الملهم منه إلـــى الوالـــي العثمـــاني أو

المصلح أو المتحدث أو كيفما شئنا أن نعرفه. فمحمد على هنا يهبط فعلاً من السماء لينتشل مصر من واقعها المزري ويبعث نهضتها. ولا يقدم لنا تيمور – وهو هنا ليس وحيدًا – أي معلومات تساعدنا على أن نفهم كيف استطاع ذلك الرجل الأمي الذي أتى من مكان ناء من الدولة العثمانية والذي كان أبوه يحترف تجارة الدخان – كيف استطاع هذا الرجل أن يتعرف على أهمية التعليم الطبي الحديث – أو إنشاء الدولة المركزية أو الجيش المدرب حديثًا ما بالك بأفكار التنويريين ؟ وبالطبع إذا صيغ السؤال بهذا لا يستطيع المرء أن يقدم إجابة إلا أنه كان عبقريًا وعلى النقيض من هذا الاتجاه لتقريظ محمد على توجد محاولات عدة لذمه وإظهاره على أنه الحاكم المستبد الظالم الذي أرهق كاهل المصريين وأنه فرعون آخر اتصف حكمه بالقسوة والظلم.

وأعود إلى مقال تيمور لكي أخذ منه مدخلي إلى محاولة التعرف على محمد على فترة حكمه بطريق لا يجرني إلى وصفه بأنه العبقري الفذ أو المستبد المستنير وسأتوقف عند نقطتين هامتين غائبتين في مقال تيمور.

النقطة الأولى التي يضمرها الكاتب هي الحقيقة العثمانية – تلك الحقبة التي دامت أكثر من أربعة قرون والتي لا يشير إليها تيمور من قريب أو بعيد. أما الغائب الأخر في هذا المقال فهو الفرد المصري، فقيرًا كان أو غنيًا، رجلاً كان أو أمرأة. ففي هذا المقال الذي يعبر بحق عن الخطاب القومي الذي ألفناه – خاصة عندما يتعرض لفترة حكم محمد على – ففي هذا المقال لا يفسح تيمور المجال إلا لذكر القادة والحكام : عمرو بن العاص ، جوهر الصقلي، محمد على، فاروق.

في حديثي عن محمد على اليوم سأحاول بالتحديد أن أتعرض لهذين البعدين الغائبين من مقال تيمور ومن الخطاب القومي المصري وبالتحديد سأحاول أن أقدم تاريخًا اجتماعيًا (وليس حربيًا) لجيش محمد على ولنبدأ بتوضيح سبب اختياري للجيش. فغرضي ليس دراسة تاريخ حربي لمحمد على وإنما التعرف على طبيعة

المجتمع المصري في فترة حكمه وأثر إصلاحاته المتعددة على هذا المجتمع. ومن هنا تنبع أهمية دراسة الجيش. فهو أولاً كان المحرك الأساسي للعديد من المؤسسات التي استحدثها محمد على مثل المستشفيات والمدارس و" الفا وريقات " التي كانت كلها تخدم الجيش بشكل أساسي. وهو ثانيًا كان ذا أثر كبير على المجتمع المصري فعن طريق التجنيد التحق بالجيش أكثر من ١٠٠ ألف مصري من مختلف الأقاليم وبذلك أرى أن تأثيره فاق بكثير في وقعه على عامة الناس المؤسسات الأخرى المرتبطة به.

وثالثاً فهو – وبالطبع – كان الإدارة التي استخدمها محمد على في حربه ضد السلطان – وبالتالي فإن دراستنا لهذا الجيش – وبخاصة لخطابات محمد على إلى قواده العظام وعلى رأسهم ابنه إبراهيم باشا من الممكن أن تمكننا من التعرف على نظرة محمد على وأفراد طبقته الحاكمة إلى اسطنبول والدولة العثمانية – ورابعًا فإن دراسة اجتماعية لهذا الجيش وبالتحديد للعلاقة بين الجنود والضباط فمن الممكن لها أن تقدم لنا صورة أو أفكاراً عن كيفية رؤية غالبية الجنود – الذين يعبرون بحق عن السواد الأعظم من السكان إلى محمد على وحاشيته وطبقته الحاكمة.

أما ما أقصده بالإطار العثماني هو أهمية أن نأخذ في الاعتبار ليس فقط أن مصر كانت قانونا ولاية عثمانية تخضع لسلطة السلطان في اسطنبول وإنها كانت كذلك لمدة تقترب من الثلاثة قرون ولكن، إضافة، أن محمد على وأفراد حاشيته والطبقة الحاكمة كانوا عثماني الثقافة واللغة والتوجه العام، وكى نوضح هذه النقطة المهمة فأقول أولاً أن محمد على وكما يظهر في خطاباته المحفوظة بأصلها التركي كان هو نفسه عثماني النزعة والهوية. فهو كان على دراية تامة بتاريخ الدولة العثمانية وبمحاولات الوزراء والسلاطين والصدور الأعظم المعاصرين له والسابقين عليه للنهوض بالدولة ولإصلاح أمورها، كما كان أيضًا على دراية بمحاولات الولاة الآخرين لولايات أخرى في الدولة العثمانية التمرد على سلطة

اسطنبول مثل محاولات الوهابيين الذين حاربهم أو ثورة الموره الذين حاربهم أيضًا أو على باشا والي يانينا وكانت لمحمد على عيون وآذان في اسطنبول تخبره أولاً بأول بأخبار العاصمة وتنقل له بشكل دائم تقلبات السياسة فيها.

ثانياً : كان محمد على شأنه في ذلك شأن الكثير من الولاة الأخريين كثير التشبه بالعثمانيين في اسطنبول ومحاولة محاكاتهم ففي ملابسه ومظهره العام أو في طريقة تنظيمه لبيروقراطيته أو لبلاطه استلهم محمد على النموذج العثماني أو على الأقل معرفته القانونية لهذا النموذج. وذلك يظهر كما قلت في ملبسه ومنظره العام كما يظهر في الطراز المعماري المفضل له والذي يظهر في مسجده أو قصوره في القلعة أو شبرا.

ثالثاً : توجد أدلة عدة في خطابات محمد على ووثائق إدارته أنه كان يأخذ هنا البعد العثماني مأخذ الجد. وكيف لا يأخذه وهو على دراية تامة بأنه ليس من أصل مصري أو أنه ذو نسب شريف ؟ ولم يكن محمد على أيضًا بفاتح يستطيع أن يقول لنفسه أو لغيره أن مصر له لأنه فتحها بالسيف. إذن لم يبق لمحمد على إلا الاعتماد على رضاء السلطان ليستمد منه شرعية حكمه. وذلك ما تؤكده الروايات المتعددة والتي يورد الجبرتي الكثير منها والتي تظهر بوضوح مدى الاهتمام البالغ بفرمان تجديد ولاية له كل عام. وتؤكد هذه الرؤية أيضًا محاولات محمد على الدائمة في استرضاء السلطان وأعوانه الكثيرين مثل دفع الجزية السنوية في ميعادها وإرسال الهدايا والعَطايا الثمينة لهم.

ومثال آخر هو تسميته للترعة التي حفرها لوصل الإسكندرية بالنيل بالمحمودية تيمنًا بالسلطان محمود الثاني.

وباختصار فإن عالم محمد على كان عالما عثمانيًا ونظرته إلى واقعه كانت دائمًا تمر بهذا المنظور. وهنا يجب التساؤل بماذا تفيدنا هذه الرؤية ؟ أي ما فائدة

النظر في مشروع محمد على من هذا المنظور العثماني ؟ أظن أنه ذو فائدة كبرى. فالجيش الذي أسسه محمد على في ١٨٢١م مثلاً كان جيشًا عثمانيًا أكثر منه فرنسيًا في استلهامه لنموذج معين ليحتذى به. وذلك إنه في اختياره للرتب والألقاب العسكرية وفي وضعه لهيكل تنظيمي للجيش فضل محمد على بشكل واضح النموذج العثماني على الفرنسي. فمثلاً عندما اقترح عليه إبراهيم باشا وسليمان أغا في عام ١٨٢١م هيكلاً تنظيمًا للجيش المزمع إنشائه رد عليهما بأن ما قاما بوضعه منقول من جيش نابليون الذي يكبر بكثير ما كان في نيته إنشائه وأمرهما أن يحتذيا بحذو السلطان سليم الثالث الذي أنشأ النظام الجديد قبل ذلك بحوالي ربع قرن. إن إغفال البعد العثماني عن تجربة محمد على تضعنا في دائرة المركزية الأوروبية التي يحاول الكثير منا التخلص منها والرد عليها.

على أن محمد على في نفس الوقت كان على دراية دقيقة بأن مكانته في هذا العالم العثماني لم تكن آمنه أو مستقره، فمحمد على – كما يظهر في خطاباته إلى إبراهيم باشا وبشكل واضح إلى نجيب أفندي عامله وسفيره في اسطنبول – كان على علم وثيق بمحاولات السلطان سليم ثم محمود للتخلص منه. ففي ١٨٠٦م وبعد عام واحد فقط من تعيينه واليًا على مصر قرر سليم الثالث عزله واستبداله بيوسف باشا والى سالونيك وإرسال محمد على بدله إلى تلك الولاية القريبة من اسطنبول والتي يمكن فيها السيطرة عليه بشكل أقوى ثم رأى إرساله إلى الحجاز لقتال الوهابيين محاولة أخرى للتخلص منه. ثم كانت مؤامرة لطيف بك (باشا) في ١٨١٣م والتي اكتشفها محمد لاظ أوغلي وقام بقطع رأس الخائن لطيف بعد أن عاد لطيف من اسطنبول وأغتنم فرصة غياب محمد علي في الحجاز ليقوم بمحاولة " انقلاب قصر Palace Coup " فمحمد على إذن لم يكن مطمئنًا في ولايته الغنية والمهمة وكان على علم بأن بقاءه في هذه الولاية يعتمد على استخدامه القوة في الاحتفاظ بها أكثر مما يعتمد على رضاء السلطان العثماني به. وبالتالي فإن إنشاءه

لجيش حديث مدرب تدريبًا جيدًا ومسلح تسليحًا حديثًا كان الغرض منه أساسًا الدفاع عن منصبه في مصر بالقوة المسلحة إذا لزم الأمر.

وقد يسأل سائل : ولكن ألم يكن الغرض من إنشاء هذا الجيش والسبب وراء تكبد كل هذه الأموال وصرف كل هذا الجهد هو القتل في سبيل تحقيق الاستقلال عن الدولة العثمانية؟ وأرى أن الإجابة على السؤال الهام من واقع الوثائق الأصلية المحفوظة بأصلها التركي في دار الوثائق هو بالنفي، فمحمد علي عندما شرع في تأسيس جيشه عام ١٨٢١ – ١٨٢٢م لم يكن في نيته حرب السلطان، ومرد ذلك ليس فقط محاولته استقراء رد فعل القوى الأوروبية تجاه هذا العمل الجريء وإنما لأنه هو ذاته لم يكن ليستطيع أن يتصور تبعات هذا العمل على العالم العثماني الذي كان ينتمي إليه، إذاً لم يتصور أن ينظر الأمور من خارج منظور هذا العالم. ونحن نرى أثر ذلك التردد بوضوح عندما قام إبراهيم باشا بالفعل بغزو بلاد الشام – فبعد انتصاراته المتعددة والمتلاحقة على قوات السلطان في معارك حمص وبيلان وقونية في عام ١٨٣٢م وبعد أن دانت له الولايات الشامية كلها بعث إبراهيم باشا إلى محمد علي ينبئه بهذه الفتوحات وينقل له طلبًا خاصًا بترجمة هذه الانتصارات العسكرية إلى واقع سياسي جديد، وبالتحديد كان إبراهيم يلح على أبيه أن يأمر خطباء المساجد بأن يدعو له وليس للسطان العثماني وأن يأمر بسك النقود باسمه.

على أن والده لم يكن مستعدًا بعد أن يذهب إلى هذا المدى، وفي المفاوضات المتأزمة التي أفضت إلى صلح قوتاهيه لم يستطع محمد علي أن يصرح لنفسه وليس فقط لخليل باشا مندوب السلطان الذي حضر للإسكندرية للتفاوض – لم يستطيع محمد علي أن يتصور نفسه خارج ذلك العالم العثماني. وفي رده على إلحاح إبراهيم المتكرر ليطلب منه الاستقلال كان يرد أبيه دائمًا :

" تكفيني محمد عليتي "، وفي نفس الوقت كان يرسل الرسالة تلو الأخرى للصدر الأعظم ولعامله لإعطائه ولاية الشامية. وباختصار وقبل أن انتقل إلى النقطة

الثانية الأساسية يجب التأكيد على أن محمد على كان يأخذ وضعه كوالٍ عثماني يستمد شريعته من تجديد السلطان لولايته سنويًا مأخذ الجد. فيجب أن نؤكد أن محمد على لم يكن فاتحًا ولم يكن ذا نسب عريق أو شريف بل كان مغامرًا عسكريًا سمحت له الظروف وهو في سن صغيره أن يستحوذ على حكم ولاية غنية، ولكن كان هذا الاستحواذ مرهونًا برضاء السلطان. غير أنه أدرك – كما كان سيدرك أي والٍ في مكانه – أن قدرته على البقاء في تلك الولاية الغنية والمهمة مرهون بتأسيسه لقوة عسكرية عتيدة يستطيع أن يعتمد عليها في صد أي هجوم عسكري قد يقوم به السلطان أو أعوانه في اسطنبول لإحلال وال أخر محله. ولذا يجب أن ينظر إلى الجيش الحديث الذي أسسه محمد علي في منتصف العقد الثاني من حكمه على أنه كان سبيله ليس لانتزاع استقلال من الدولة العثمانية بل لترسيخ مكانته في مصر كوالٍ باسم السلطان ومحاولة إبقاء تلك الولاية صلبة من بعده. وبهذا يمكن أن ينظر إلى فرمان ١٨٤١م ليس كدليل لهزيمة محمد على أو لتمكن أوروبا من الاتحاد مع الدولة العثمانية لحرمان محمد على من ثمرات نجاحه – بل على العكس : يجب أن ننظر إلى هذا الفرمان على أنه قمة نجاح محمد على فهو قد حاول طيلة حياته أن يضمن منصبًا دائمًا كوالٍ لهذه الولاية المهمة وأن يبقى حكمها في نسله من بعده، وهذا بالضبط ما تمكن من تحقيقه سنة ١٨٤١م وهو في السبعين من عمره.

وانتقل الآن إلى النقطة الثانية في حديثي ألا وهي التاريخ الاجتماعي لذلك الجيش، والمقصود بالتاريخ الاجتماعي بالطبع ليس ذلك التاريخ الذي ألفناه والذي تلقناه في المدارس والذي يعتبر بحق تاريخ فتوحات ومعارك – تاريخ ضباط وقادة– بل أقصد هنا تاريخ هذا الجيش كما ولو كان قد كتبه أحد الجنود، ونصطدم هنا بالطبع بمشكلة المصادر التي يمكننا الاعتماد عليها لتقدم لنا صورة من واقع الجنود سواء أثناء فترة التجنيد أو التدريب أو تلك التي تتعلق بأدائهم الفعلي في المعركة أو بتبعات المعركة : أي الإصابة أو الموت أو الفرار.

وسأتناول بالتحديد أهم هذه المراحل – ألا وهي مرحلة التجنيد.

ومن المعروف أن أول قرار بتجنيد الفلاحين كان قد صدر في جمادى الأول ١٢٣٧هـ الموافق فبراير ١٨٢٢م وكان الغرض منه جمع حوالي أربعة آلاف من فلاحي الصعيد ليحلوا محل الجنود الأتراك الذين سبق إرسالهم إلى السودان.

وفي هذه المحاولة الأولى للتجنيد حثَّ محمد علي رجاله أن يتعاملوا مع هذه المهمة الدقيقة برفق وحذر فكتب مثلاً في مارس ١٨٢٢م إلى إبراهيم باشا يحذره من أنه علم أن ضباط التجنيد يجمعون الرجال من القرى بنفس الطريقة التي يجمعونهم بها للسخرة. ثم أضاف أن هذه الطريقة يجب أن تتوقف فوراً لأن الفلاحين وكما قال بالحرف الواحد "ليسوا معتادين على الخدمة العسكرية ... فعلينا أن نرغبهم فيها. ويمكن تحقيق ذلك بتعيين بعض رجال الدين الذين يمكن أن يقنعوا الفلاحين بأن الخدمة العسكرية ليست كالسخرة. ونستطيع في نفس الوقت أن نذكرهم أن الفرنسيين عندما كانوا في مصر استطاعوا أن يجندوا الأقباط للخدمة في جيشهم ... فإذا كان هذا حال القبط فلاشك أن حال المسلمين سيكون أفضل، فقلوبهم تمتلئ بالتقوى والغيرة على الدفاع عن الملة ".

في تلك الرسالة يبدو الباشا متفائلاً بشأن كيفية استقبال الفلاحين لتلك السياسة الجديدة التي أتت في وقت كانت الضرائب الكثيرة قد أثقلت كاهلهم بالفعل وكانت سياسة الاحتكار قد عممت لتشمل أغلب المحاصيل الزراعية التي كانوا ينتجونها. ولذلك واجه ضباط التجنيد مشاكل أخطر كثيرًا من أن تحل بمجرد تعيين دعاه لترغيب الفلاحين في الخدمة العسكرية. ذلك أن السلطات، بالإضافة إلى افتقارها إلى أية معلومات تفصيلية عن السكان كانت مفتقرة أيضًا إلى أية معايير بشأن شروط السن والحالة الاجتماعية وعدد الأخوة لمن يتم تجنيدهم. فما كان على ضابط التجنيد بمجرد تلقيهم أوامرهم بجمع عدد من الفلاحين إلا أن يغيروا على عدد من القرى ويلقوا القبض على من يوجد من الرجال بلا نظام ولا ترتيب ولا اقتراع

وحينئذ يربط هؤلاء الرجال بحبال حول أعناقهم في مجموعة من ستة إلى عشرة أفراد ثم يساقون إلى المعسكرات مخلفين وراءهم جماعات تعيسة محطمة القلب من الزوجات والأمهات والأطفال يولولون ويصرخون ويحاولون سدي أن يمنعوا الجنود من الرحيل برجالهم.

أما محاولات الباشا في إقناع الفلاحين بأن الخدمة في الجيش واجب ديني فلم تلق إلا أذانًا صماء. وتلك المحاولة على أية حال كانت خطيرة عندما شرع الباشا في غزو الديار الشامية عندما كان يقاتل جيوش السلطان العثماني نفسه.

هنا نأتي إلى لب المشكلة التي واجهت محمد علي وأجهزته العسكرية فالباشا لم ينجح مطلقًا في إقناع الفلاحين بالالتحاق في الجيش بإرادتهم الحرة، ففور العلم بسياسة التجنيد الجديدة استخدم الفلاحون مختلف الطرق لمقاومتها. وأول هذه الطرق كان التمرد العام. فالوثائق توضح أن تمردين على الأقل قد إندلعا بسبب سياسة التجنيد. أولهما كان في المنوفية في مايو ١٨٢٣م، عندما اندلعت انتفاضة مؤثرة استطاع محمد على إخمادها فقط عندما قاد بنفسه قوة من حرس قصره مزودة بستة مدافع ميدان. أما الانتفاضة الثانية فمن الممكن اعتبارها ثورة شعبية اندلعت في الصعيد وشملت كل المنطقة من المنيا حتى أسوان واشترك فيها ثلاثون ألف رجل وامرأة واستمرت أكثر من شهرين. تلك الثورة لم تخمد إلا بعد أن قضى الباشا على أكثر من أربعة آلاف فلاح وبعد أن أعدم عددًا كبيرًا من الضباط والجنود رميًا بالرصاص نظير اشتراكهم في هذه الثورة.

أما الطريقة الثانية لمقاومة التجنيد فكانت تلك المحاولات البائسة للفلاحين بأن يقوموا بتشويه أجسادهم أملاً منهم أن يحصلوا على "تذكرة" من أحد الحكماء (الأطباء) بالإعفاء من الخدمة. وكانت أهم طرق التشويه خلع السنة الأمامية لكى لا يستطيعوا خلع خراطيش بنادقهم لملئها بالبارود أما الطريقة الثانية للتشويه فكانت بتر السبابة لكي لا يستطيعوا شد الزناد. والطريقة الثالثة كانت وضع سم فئران في

أعينهم لكي تبدو وكأنهم قد أصابهم الرمد أو حتى العمى.

بالطبع لم يكن لمحمد على أن يسمح لهذا الإهدار للقوى البشرية. وسرعان ما اتضح للفلاحين رد فعل السلطات القمعى لمحاولاتهم البائسة للهروب من سيطرة الباشا.

لقد أمر محمد على بأن أي شخص يساعد الفلاحين على تشويه أجسادهم – وهؤلاء كانوا في العادة إما أمهاتهم أو زوجاتهم – لأن يشنقوا على مداخل القرى، أما المشوهون فقد كانوا يجندوا بالرغم من عاهاتهم – بل أن " ارطاً " بأكملها كانت تشكل من المعاقين إما بسبب عاهات وقعوها على أنفسهم أو بسبب جروح تلقوها في المعارك. بالإضافة إلى ذلك فقد تم منع بيع سم الفئران تمامًا في مصر وكان يعاقب من يبيعه بالجلد.

أما الطريقة الثالثة التي اتبعها الفلاحون لمقاومة الخدمة العسكرية فكانت الفرار. وهنا يجب التأكيد عل أن حالات الفرار لم تكن حالات فردية بل شكلت ظاهرة كبيرة ومزعجة لمحمد على وكبار ضباطه. وسرعان ما اتضح أن من واقع يوميات التعداد أن الفارين شكلوا في منتصف الثلاثينات. أي بعد مرور حوالي ١٥ سنة على البدء في سياسة التجنيد – ستين ألف عسكري من الجيش فقط (+ ٢٠ ألف من الأسطول) أي أن عدد الفارين بلغ حوالي نصف الذين كانوا تحت السلاح.

وبالمقارنة بجيوش السلطان العثماني أو بجيش نابليون فإن هذه النسبة كانت كبيرة جدًا ولا تترك في رأيي أي شك أن " مشروع محمد على " ايما كان تعريفه لم يلق أي صدى لدى الغالبية العظمى من رعاياه ويجب هنا التأكيد على أن جيش محمد على لم يكن الجيش الوحيد في التاريخ الذي استطاع أن يحقق انتصارات مذهلة في ميادين القتال بالرغم من عدم اقتناع غالبية الجنود بالهدف الذي يحارب من أجله هذا الجيش. فجيش نابليون يقدم أبلغ مثال على أن هناك جيوش حارب فيها

الجنود لا للدفاع عن الوطن بل لمجد ومصلحة شخص واحد.

ولكن في حين نجح نابليون في إقناع ضباطه على أن ما كان يحارب من أجله كان فعلا الثورة وعظمة فرنسا لا شخصه وعظمته هو، وفي حين حاول هؤلاء الضباط بدورهم أن يقنعوا جنودهم بذلك، لم يقم محمد على حتى بمحاولة حث ضباطه على النظر إلى هذا الجيش وإلى دورهم فيه على أنه جيش مصري، بل على العكس فقد كان في ذهن الباشا كما عبر صراحة لأحد مستشاريه العسكريين الفرنسيين أن ما كان يقوم به في مصر لا يختلف عما يقوم به الإنجليز في الهند. فهم هناك يجندوا الهنود ويؤمر عليهم ضباطًا إنجليز وهو في مصر يجند الفلاحين ويؤمر عليهم ضباطًا أتراكاً. وإن هؤلاء الضباط كانوا يدينون بالولاء ليس لمصر أو لسكانها وإنما له ولأسرته.

ولا يتسع الوقت للحديث هنا عن العلاقة المتأزمة بين الجنود والضباط في هذا الجيش. ولكن من الضروري طرح نقطتين أساسيتين :

أولاهما أنه كانت هناك فجوة كبيرة في اللغة والثقافة والمستوى الاجتماعي بين الجنود وضباطهم. فهؤلاء الضباط الذين وفدوا من شتى أنحاء الدولة العثمانية لم يكن يجمعهم بالجنود الذين قادوهم سوى عنصر الدين. أما من حيث اللغة والثقافة والأصل فهؤلاء الضباط شكلوا فئة مختلفة اختلافًا أساسيًا عن الجنود. وبالتالي فإذا كان لجيش محمد على أي أثر على خلق شعور بين الجنود بالتفرد والاختلاف عن الأخر فإن هذا الأخر لم يكن جيوش السلطان العثماني الذي كانوا يحاربونه بل تلك الفئة المتغطرسة والمتعالية عنهم لغويًا وعرقيًا ومن حيث أصولها الجغرافية والتي كانت تستحوذ على الرتب العليا في الجيش. أما النقطة الثانية فهي أن هؤلاء الضباط تمكنوا بفضل مساعدة العسكريين الفرنسيين لهم من أن يطوعوا الجنود وأن يدربوهم تدريبًا حديثًا. وباختصار فإن الانتصارات العسكرية المتلاحقة التي حققتها قوات محمد علي لم تكن نابعة من حماسة الجنود لمشروعه بل كان الفضل راجعًا

فيها لولاء ضباطه له ولتفانيهم في السيطرة على الجنود وتدريبهم وتحويلهم في النهاية إلى آله عسكرية لا يستهان بها، بغض النظر عن شعورهم الإنساني أو الوطني المصري.

وفي النهاية أود أن ألخص ما قلته في بداية حديثي فأغلب الدراسات – وإن لم تكن كلها– التي تناولت جيش محمد علي حاولت رؤية تلك المؤسسات الهامة من وجهة نظر الباشا نفسه، وزادت بأن نظرت إلى محمد علي على أنه زعيم قومي بالرغم من أصله الألباني، وفي المقابل فقد حاولت هنا وضع تجربة محمد علي في إطار عثماني وأن أقدم تاريخًا اجتماعيًا لجيش محمد على. وبالتالي يظهر جيش محمد علي وتظهر حروبه ومغامراته العسكرية ليست كحروب تحرر وطني كما جرت العادة على قراءتها من القاهرة أو كتمرد مسلح كما جرت العادة على قراءتها من اسطنبول بل كمحاولات وال طموح وقوي في إبقاء حكم ولايته المهمة له ولأولاده من بعده. كما حاولت أن أقول أن نجاحه في ذلك لم يكن راجعًا إلى عبقريته أو نفاذ بصيرته بقدر ما كان بفضل الجهود القسرية للآلاف من رعاياه المستضعفين دون ما اقتناع من جانبهم بمشروعه أو مشاركتهم الوجدانية فيه.